

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

مضت بضعة أعوام منذ أصدرت العصر الأول من كتابي « دولة الإسلام في الأندلس » في سنة ١٩٤٣ ، محتوياً على تاريخ الأندلس منذ الفتح إلى عصر عبد الرحمن بن الحكم ؛ وكان المفروض أن أتبع هذا العصر الأول بانجاز العصر الثاني ، محتوياً على تاريخ الخلافة الأموية ، ثم العصر الثالث محتوياً على تاريخ دول الطوائف وعصر المرابطين والموحدين ، حسبما أشرت إلى ذلك في مقدمة العصر الأول . ولكن شغفاً خاصاً كان يدفعني منذ البداية ، إلى دراسة المراحل الأخيرة من حياة الأمة الأندلسية ، وهي التي تتناول تاريخ مملكة غرناطة ، آخر الدول الإسلامية بالأندلس ، منذ قيامها في منتصف القرن السابع الهجري ، حتى نهايتها في سنة ٨٩٧ هـ (١٤٩٢ م) ثم تاريخ « المورييسكيين » أو العرب المنتصرين ، وهم بقايا الأمة الأندلسية الشهيذة ، حتى إخراجهم نهائياً من الوطن الأندلسي . وكنت في الواقع قد قطعت في دراسة هذه المرحلة وإعدادها خطوات مشجعة . وكنت أشعر من جهة أخرى أنه إذا كانت المكتبة العربية ، قد ظفرت في الأعوام الأخيرة بطائفة من الكتب والبحوث ، في عصور الأندلس الأولى والوسطى ، فإن عصورها الأخيرة ، ونهايتها المحزنة ، واستشهادها المؤسى ، لم تنل حقها من البحث ، ولم تكتب بما تستحق من عناية وإفاضة ، ولم تضممها إلى اليوم قصة شاملة .

ولهذا آثرت أن أعكف على دراسة هذا العصر الأخير من تاريخ الأندلس ، وإخراجه قبل العصرين الثاني والثالث . وقد استطعت بعد أعوام من البحث والجهد

المتواصل . أن أنجز هذا السفر الذى أنصحه الآن بين يدي القارئ . عن غروب الأندلس ونهايتها . وليس فى صحت التاريخ الإسلامى كلها . على سعة آفاقه ، وتباين عصوره . ووفرة أحداثه . ما يثير من الشجن والأسى ، ومن الإكبار والإعجاب معاً . قدر ماثيره هذه المأساة الأندلسية . التى تنطوى على إبادة أمة عظيمة بأسرها . ومحو آثارها وذكرياتها وحضارتها . من الوطن الذى شادته بذكائها وعبقريتها . وسطعت فيه مدى قرون .

ولقد غاضت على كر العصور أمم وحضارات كثيرة . ولكنها غاضت بفعل الزمن ، وفعل أحداثه وتطورات . أما الأمة الأندلسية فكان مصرعها أمراً مدبراً ، قررت السياسة الإسبانية ، ورسمت لتحقيقه خططها الوندالية . وقامت بتنفيذه حكومات تضطرم تعصباً وبغضاً للأمة المغلوبة ودينها وحضارتها . ولبثت الأمة الشهيدة ، بعد أن فقدت سيادتها وحريتها واستقلالها أكثر من قرن ، تعاني أفدح الآلام المادية والمعنوية ، من حياة الذلة والمهانة ، وعسف الاجراءات والقوانين المرهقة ، وقضاء محاكم التحقيق . حتى مزقت فلولها الباقية . وقضت فى النهاية شهيدة التعصب والجهالة والبغى ؛ ولكنها قضت أية كريمة ، وسجلت بابائها وجهادها . أروع صفات البطولة والاستشهاد القومى .

ومن الأسف أن تكون المصادر الإسلامية ، فى هذه المراحل الأخيرة ، من حياة الأمة الأندلسية ؛ قليلة ضئيلة . أجل لقد انتهت إلينا عن تاريخ مملكة غرناطة وأحوالها طائفة من المراجع القيمة فى مقدمتها كتب الوزير ابن الخطيب ، وما كتبه عنها ابن خلدون حتى حوادث عصره ؛ وكذلك انتهت إلينا طائفة حسنة أخرى عن تاريخ مملكة تبي مرين ، قرينة مملكة غرناطة ، وعضدها الأيمن فى الجهاد . ولكن هذه المراجع الإسلامية تقف بنا عند أواخر القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) . ولا نكاد نظفر بعد ذلك ، خلال القرن التاسع الهجرى ، وهو بالنسبة لمملكة غرناطة ، عصر الانحلال والسقوط النهائى ، بأية مراجع إسلامية ذات شأن ، وليس لدينا من

نهاية الأندلس

وتاريخ العرب المنتصرين

للأستاذ محمد عبد الله عنان

هو الحاققة الرابعة والأخيرة من كتاب « دولة الإسلام في الأندلس » . وهو يحتوى على تاريخ مملكة غرناطة آخر الدول الإسلامية بالأندلس . ثم تاريخ الموريسكيين أو العرب المنتصرين وهم بقايا الأمة الأندلسية حتى إجلالهم نهائياً عن اسبانيا . وهو مؤلف مستقل بذاته . ولكنه فقط حلقة في نفس السلسلة الأندلسية التى تشتمل على أربعة عصور من التاريخ الأندلسى . صدر منها العصر الأول تحت عنوان « دولة الإسلام في الأندلس » منذ الفتح إلى نهاية عصر عبد الرحمن ابن الحكم (ويقع في ثلاثمائة صفحة) . وسيصدر عما قريب ملحق لهذا العصر يتناول عصر الفتنة الأندلسية الكبرى ، ويصل به حتى نهاية عصر عبد الرحمن الناصر (منتصف القرن الرابع الهجرى) .

كتب أخرى بقلم المؤلف

- ١ - ديوان التحقيق والمحاکمات الكبرى .
- ٢ - مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام .
- ٣ - الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية .
- ٤ - تراجم إسلامية شرقية وأندلسية .
- ٥ - مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية .
- ٦ - ابن خلدون ، حياته وتراثه الفكرى .
- ٧ - المأسى والصور الغوامض .
- ٨ - المذاهب الاجتماعية الحديثة .

ويمكن الحصول على كتابى « دولة الإسلام في الأندلس » و « نهاية الأندلس » وكذلك على باقى كتب المؤلف من المؤلف (ت ٤٤٦٨٣) ومن لجنة التأليف والترجمة والنشر ومن المكتبات الهامة .

تراث الرواية الإسلامية في تلك المرحلة القائمة من تاريخ دولة الإسلام في الأندلس ،
سوى رواية صاحب « أخبار العصر » في انقضاء دولة بني نصر » عن سقوط
غرناطة في أيدي الإسبان ، وما نقله إلينا المقرئ عن تلك المرحلة الأخيرة من شذور
ضئيلة متفرقة . أما عن مأساة الموريسكيين أو العرب المنتصرين ، وهم بقايا الأمة
المغلوبة ، فلسنا نظفر من الرواية الإسلامية إلا بأقوال وشذور يسيرة ، لا تشفى طلبة
الباحث . ولذا كان جل اعتمادنا في استعراض هذه المرحلة الأخيرة ، من حياة الأمة
الأندلسية . على المصادر الغربية . وإذا استثنينا المصادر الإسبانية التي يفيض معظمها
بالمؤثرات القومية والدينية ، فانه لما يشهد للبحث الغربي بالإعتدال والروية ، وروح
الإنصاف . ما يبديه في معظم المواطن ، من تقدير مؤثر لعبقرية الأمة المغلوبة
وحضارتها ، وروعة كفاحها في سبيل الذود عن حياتها وكرامتها وراثتها ، وما يبديه
بالأخص من عطف على محنتها وآلامها ، ومن استنكار لخطط السياسة الإسبانية
وأساليب ديوان التحقيق في العمل على إبادةها . ويكفي أن ننقل في هذا الموطن تلك
العبارة الموجزة القوية ، التي يجمل فيها الدكتور « لى » ، وهو من أحدث الباحثين
في هذا الموضوع . مأساة العرب المنتصرين في مقدمة كتابه إذ يقول : « إن تاريخ
الموريسكيين لا يتضمن فقط مأساة تثير أبغى عطف ، ولكنه أيضاً خلاصة لجميع
الأخطاء والأهواء ، التي اتحدت لتنحدر باسبانيا في زهاء قرن ، من عظمتها أيام شارل
الخامس إلى ذلتها في عصر كارلوس الثاني » .

وقد عنيت بأن أسرد تاريخ اسبانيا النصرانية بإيجاز إلى جانب تاريخ مملكة
غرناطة ، وعنيت في مأساة العرب المنتصرين بالإفاضة في سرد خطط السياسة
الإسبانية لإبادة الأمة المغلوبة ، وفي الإلمام بتاريخ محاكم التحقيق ، ووسائلها
وإجراءاتها المروعة ، التي غدت مضرب الأمثال لكل قضاء ونسبى ، وما كانت تنزله
بالعرب المنتصرين من صنوف الويل والتعذيب ، كما عنيت باستعراض القوانين
الغريبة المرهقة التي كانت تسنها الحكومات الإسبانية المتوالية ، للقضاء على حضارة

الامة المغلوبة ، وعلى دينها ولغتها . وكل خواصها وآثارها . وعينت أخيراً بالإفاضة في تفاصيل قانون النفي النهائي ، لبقايا الامة الشهيدة من وطنها القديم . واجراءاته وطرق تنفيذه ، وما ترتب عليه بالنسبة لاسبانيا النصرانية من الآثار الاجتماعية والاقتصادية المخربة . وعلى الحملة فقد بذلت وسعى لكى أقدم إلى القارئ تفاصيل هذه القصة الأندلسية المحزنة — قصة نهاية الأندلس — وهى التى تخرج اليوم بالعربية لأول مرة . كاملة شاملة ، في أوضح الصور وأتمها .

ويضم القسم الرابع من الكتاب لمحة عن النظم السياسية والاجتماعية ، التى عاشت في ظلها آخر الدول الإسلامية بالأندلس ، واستعراضاً موجزاً للحركة الفكرية في هذا العصر . وهنا أيضاً يشعر الباحث بثقله المراجع الإسلامية ، ولامسا المتعلقة منها بالعصر الأخير . ومن المحقق أن المقرئ بما ينقله في كتابيه « نفح الطيب » و « أزهار الرياض » من شذور وتراجم عديدة ، عن أصول ضاع معظمها على الأغلب . يسد أكبر فراغ في هذا الوطن . بيد أنه يقصر أيضاً عن إمدادنا بكل ما نطمح إليه من تفاصيل الحركة العقلية في الأندلس قبيل سقوط غرناطة ، وبعده خلال القرن المظلم ، الذى أخذ فيه تراث الامة المغلوبة الروحي والعقلي ، يغيب شيئاً فشيئاً ، في غمر الاضطهاد والنسيان والحن .

وقد بدأ البحث الحديث منذ أكثر من قرن يعنى بتاريخ اسبانيا المسلمة ، ويحله مكانته الحققة من التاريخ الأوربي ، بعد أن عملت السياسة الإسبانية والتفكير الإسباني على حجبهِ وطمس معالمه زهاء ثلاثة قرون . ومن الغريب أن اسبانيا النصرانية لم تفتن إلا في العصر الأخير إلى أن تاريخ اسبانيا المسلمة إنما هو جزء لا يتجزأ من تاريخها القومي ، وأن عظمة اسبانيا المسلمة ، وعظمة حضارتها وذكرياتهما ، إنما هي صفحات وضاعة في تاريخ اسبانيا العام . ومن ثم كان اهتمام دوائر البحث الإسباني في العصر الأخير بتاريخ الأندلس والحضارة الأندلسية ، ونشر المراجع والوثائق الأندلسية المتعلقة به ، بعد أن طال احتجاجها في أقبية الإسكوريال ، ومحاولة

تناوله بروح جديدة ، تحررت إلى حد كبير من المؤثرات القومية والدينية ، التي باعدت في الماضي بينه وبين روح الإنصاف والتقدير الحق . وقد ظهرت آثار هذا التطور منذ أوائل القرن الماضي فيما يديه بعض أكابر الكتاب والمؤرخين الإسبان مثل كوندى ولورنتى وجاينجوس وبكاتوستى في مؤلفاتهم من تقدير لعظمة الأمة الأندلسية ورفيع حضارتها ، ومن نقد بالغ لموقف السياسة الإسبانية منها ومن تراثها .

وإذا كنت قد استطعت باخراج هذا السفر أن أحقق أمنية لبثت تساورنى مدى أعوام طويلة ، فاني أرجو في الوقت نفسه أن أكون قد وفقت باخراجها ، إلى المساهمة في سد جانب من ذلك النقص الذى مازال ملحوظاً في كتابة التاريخ الأندلسي .

محمد عبد الله عياد

القاهرة في جمادى الثانية سنة ١٣٦٨
الموافق ابريل سنة ١٩٤٩